مجلة الهلال

أغسطس 2008

رءوف عباس

د.صموئيل لبيب سيحه

تعود معرفتى بأستاذنا د. رءوف عباس إلى حقبة الثمانينيات من القرن الماضى (العشرين) إبان حضوره إلى جامعة المنيا لمناقشة رسالة الماجستير لأحد أصدقائنا، وهو المرحوم د. فوزى سوريال دميان، التى إندرجت تحت عنوان : "كبار ملاك الأراضى الزراعية".. فى الفترة من 1858-1896 م، وكنا آنذاك فى الدراسات العليا بكلية الآداب، وضمت لجنة المناقشة كلاً من أ. د. جلال يحيى رئيساً و مشرفاً، أ. د. رءوف عباس عضواً، أ. د. رأفت غنيمى الشيخ عضواً وحرصت على تدوين الملحوظات والملاحظات أولاً بأول آنذاك، خاصة التى كان يبديها د. رءوف، ورجعت إليها الآن حال كتابتى هذا المقال، ودار الحوار العلمى للمناقشة ثقافياً وصحياً، وتخلله حماس زائد وحمية من د. رءوف، خاصة لأن موضوع رسالة الدكتوراه الخاصة به إندرجت تحت عنوان "كبار ملاك الأراضى الزراعية، وأثرهم فى الحياة الإجتماعية والسياسية حتى عام 1914"، وتصادف أيضاً أن كان موضوع رسالة الدكتوراه للدكتور عاصم دسوقى تحت عنوان : " كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى 1914-1952". إذن الموضوع واحد مع الفارق الزمنى.

وتأسيساً على ذلك، كانت المناقشة حامية الوطيس، حافلة بأمور دقيقة، كانت تستوقف د. رءوف من حين إلى آخر، ويحاول الإستفسار من د. فوزى بين الفينة والأخرى.. ويبدو أن الباحث فاته الكثير مما جعل د. رءوف يستحوذ على وقت كبير فى المناقشة، وقام بتفتيت الرسالة من الألف إلى الياء خاصة أن د. رءوف على إلمام كامل وشامل - بالطبع - بالموضوع الذى طرح للمناقشة، وأخذ على الباحث أن رسالته تفتقر إلى العديد من الإهتمامات والوثائق وجدة البحث، وأنه - الباحث - كان بعيداً عن الغوص فيما وراء الأحداث التاريخية، خاصة الخلفيات الإقتصادية والإجتماعية، التى تحدد مسار التاريخ، دون الإقتصار على البنية الفوقية التى تسترعى أنظار وإهتمام معظم المؤرخين و الباحثين.. وسأل د. رءوف عباس فى ثنايا المناقشة، الباحث قائلاً: "أريد أن أعرف من الباحث لماذا فشلت فكرة إنشاء بنك وطنى فى مصر إبان القرن التاسع عشر الميلادى، لتغلغل النفوذ الأجنبى آنذاك ؟! وأوضح للباحث أيضاً أن الفلاح المصرى إستسلم لسياسة الأمر الواقع تماماً بمعنى أنه مغلوب على أمره، وظل د. رءوف يحاور د. فوزى ويدور معه فى البحث والمناقشة. وإنتهت المناقشة، لكن يبدو أن د. رءوف لم يكن راضياً عن الرسالة، لكن قد أفدنا جميعاً منها، من تلك الملحوظات الدقيقة، أما الباحث فكانت للمناقشة إنعكاساتها السلبية عليه، مما جعله يعى جيداً ذلك فى رسالة الدكتوراه.. أن ينأى عن التاريخ الإقتصادى والإجتماعى متوجهاً إلى التاريخ السياسى.. وإننى إذ أذكر هذه الصفحة المجهولة و أعرضها لأول مرة فلحساسية الموقف، ولأن د. فوزى سوريال، كان قد رحل عن عالمنا هو أيضاً منذ سنوات، وقال د. رءوف عن رسالته "فوزى سوريال" بأنها موضوع فضفاض!

والإنصاف يقتضينا إذن، أن نقول إن مناقشات المرحوم د. رءوف، كانت تتسم بالدقة المتناهية، لأنه من المؤرخين القلائل الذين نذروا أنفسهم لسبر أغوار التاريخ من خلال مناهج البحث والإهتمام النادر بالوثائق وهى الدعامة الأساسية للباحث، أياً كانت عربية أم أجنبية، كما أنه مؤرخ تجلت قدرته وإتسعت آفاق معرفته، بالغوص فى أعماق الماضى إلى أبعد مما كانت تتيحه الوثائق، بالسعى دوماً لكشف النقاب عن موضوعات حديثة ومعاصرة لإستشراف المستقبل الذى كان ينشده من وراء إهتمامه بالتاريخ.

وهكذا واصل المسيرة فى نشاط جم، ويقظة دائبة، وجد موصول، وكثيراً ما كان يزور دولاً أوروبية للإفادة من تجاربها، ويحاول جهد طاقته تطبيق مثل تلك التجارب فى بلاده (مصر).. وله فى التجربة اليابانية على سبيل المثال باع كبير، وعلمت ذلك بعد رحيله، حيث كان يعود من زيارته لليابان ملتهباً متوقداً، يصل الليل بالنهار، لإيقاظ الشعور، وتنبيه العقول وتحريك العزائم، كل ذلك بحكمة ومهارة وهمة لا تفتر، فصار له شأن أى شأن ونال بذلك جائزة الدولة التقديرية عام (2000) ولو أنها جاءت متأخرة ! إلا أنه أهلٌ لها، حيث أسس مدرسة تاريخية تشهد له بالكفاءة، والعرفان وكرس حياته فى سبيل ذلك محققاً ما كانت تصبو إليه نفسه، لكن لم يمهله القدر لتحقيق آماله وتطلعاته والإستمرارية فيها.

وفى إطار الفكرة ذاتها، وما نستشفه من ثنايا كتابه الأخير "مشيناها خطى" وهو السيرة الذاتية (الأكاديمية بوجه خاص)... لذلك المؤرخ المرموق، والذى أحدث دوياً هائلاً واسع النطاق فى الأوساط التاريخية و الأكاديمية و الثقافية... إلخ حيث فضح فى ثناياه مدى الخراب والتدمير الذى حل بالجامعات المصرية، وفى زحم ظروف موضوعية كانت

السلطة السياسية بمثابة نتوء شاذ فيها حيث كانت الجامعات تقع تحت وطأة المخابرات والأمن، وأن تلك السلطة بدورها إستخدمت الجامعة كمخلب قط لتنفيذ مآربها... ومخططاتها السياسية التى كانت فى موقف عداء للحرية.. والعدالة والتنوير والتقدم!!! وللأسف الشديد كانت لذلك آثار كريهة، وترك آثاراً أخرى سيئة لا تمحى، تعد أكثر مرارة لأنها صدرت عن قلة من المؤرخين، وهم حملة المباخر للسلطة السياسية، ووقفوا بالمرصاد لكل مثقف مستقل مثل المرحوم د. رءوف عباس، فوصفهم د. محمد أنيس.. ب"إنهم منافقون يتسمون بالإنتهازية المقيتة" ونعتهم بأنهم من أدعياء التاريخ والثقافة، يلقون نفاياتهم وينثرونها على الصحف والمجلات، وأصابوا المجتمع المصرى فى مقتل!! ولا يكبر حجمهم عن تجار الشنطة.. هؤلاء فى التجارة وأولئك فى الثقافة، وللأسف الشديد الدافع واحد والنتيجة واحدة !

والحقيقة التى لا يجانبها الصواب، أن كتاب المرحوم د. رءوف المشار إليه، بل وصل الأمر إلى أنه أقيمت دعوى قضائية ضد د. رءوف شخصياً، لكن برئت ساحته، حيث تم الفصل فى تلك الدعوى لصالحه، وهنا ظهر الحق، وزهق الباطل، لكن إنها السلبيات التى جرؤ د. رءوف على فضحها وإماطة اللثام عنها فى تجرد وموضوعية وشجاعة.. ولأنه كان أشد رقابة ويقظة لعيون خصومه.. وللأسف هناك من المؤرخين المزمرين والمطبلين للسلطة الذين فشلوا فى مخططاتهم، وإستعانوا بالوعد والوعيد، و الإغراء والتهديد، فلم يفلحوا، لأن د. رءوف عباس كان قوى الشكيمة صلب العود، لا يبالى برجاء، أو تخويف.. وسوف يدرك أولئك الخصوم مآثر ومناقب المرحوم "رءوف".. وجليل أعماله فى مجال التاريخ، تذكر تلاميذه وأصدقاءه دوماً وسوف يجرى اسمه على كل لسان، إذن هو حى.. بتاريخه ومفاخره ويحق عليه قول شاعر

الناس صنفان : موتى فى حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء

وما أشبة الليلة بالبارحة، وفى السياق نفسه، نال د. طه حسين نفس العقاب وحد الموسى عندما نشر كتابه "فى الشعر الجاهلى" (1926) وأيضاً الشيخ "على عبد الرازق" عندما نشر كتابه (الإسلام وأصول الحكم عام 1935)..وتلك هى للأسف حال المثقف المستقل الذى يعيش وسيف السلطة مصلت عليه أينما ذهب وحيثما وجد !! وهى النتيجة المنطقية للظلامية التى نحيا فى كنفها اليوم إضافة إلى الجمود الفكرى والعيش فى المرحلة الغيبية التى تعادى الثقافة والتنوير وتتعقبهما هنا وهناك، وفى تقديرى، أنها تعد بداية النهاية للتاريخ بالنسبة لنا، خاصة ونحن نعيش فى عالم وعصر يموج بصراع الحضارات، وصراع الثقافات، وتصادم الأديان، وفى إطار (العولمة) المتوحشة، وهذا يؤثر بدوره على السلوكيات والأخلاقيات فى ظل ما تبثه الفضائيات من ثقافة إستهلاكية لا طائل من ورائها سوى تدمير الأخلاق من جراء الإثارة الجنسية الفاضحة، ناهيك عن إثارة الفتن الطائفية وعواقبها الوخيمة على البلاد بصفة عامة، مما نضيق به ذرعاً.

وخلاصة القول :

إننا لا نزال نذكر مآثر د. رءوف عباس الحميدة، وخصاله الكريمة، وأعماله المجيدة فى مجال "التاريخ" وتركه بصمات واضحة، حيث إزداد الإهتمام فى السنوات الأخيرة، بالتاريخ الإجتماعى والإقتصادى لمصر الحديثة،ومن ثم باتت التوجهات من جانبه - د. رءوف - صوب دراسة البنية الإجتماعية للأمة المصرية على مختلف العصور التاريخية.. فى سياق أبحاثة ودراساته الأكاديمية التى تضمنت شرائح المجتمع من "الفلاحين والعمال والجنود" وغيرهم من الطوائف العاملة، وتجلى ذلك فى ثورة مصر عام 1919 وتظاهرت عام 1925، والشراكة الفعلية فى حركة المقاومة الشعبية عقب معاهدة 1936 بين مصر وبريطانيا، إضافة إلى المساهمات فى أحداث القناة ضد الإحتلال عام 1951.. وليس غريباً أن "د. رءوف" كان من أبناء الجيل الذى عاصر إنهيار الملكية فى مصر، وعايش ثورة 23 يوليو 1952، وكان فى صفوف التظاهرات التى إندلعت عام 1954 للمطالبة بالديمقراطية، وأنه كان وطنياً فى الصفوف الأولى من جنود مصر المخلصين، حينما تطوع فى الحرس الوطنى إبان العدوان الثلاثى 1956، ولقد سبق له أن إنضم إلى التظاهرات المعادية لسياسة الأحلاف، والمؤيدة للحياد الإيجابى، وبوجه خاص فى مؤتمر باندونج 1955، ذلك إبان أن كان طالباً فى جامعة عين شمس، كذلك التظاهرات المؤيدة للوحدة المصرية - السورية 1958، والتظاهرة الكبرى التى شهدتها القاهرة عشية الانفصال للوحدة 1961.. وتركت هزيمة 5 يونيو 1967 آثاراً كريهة فى نفسه، وخالجه إحساس بالمرارة إزاءها، إضافة إلى تنحى "عبد الناصر" فى مظاهرات 9، 10 يونيو 1967، وإختمرت كل تلك الأحداث فى ذهنه وفى نفسه، وبدأ يكشف النقاب عنها، وكان منبرة القريب إلى فؤاده والذى وجد فيه ضالته المنشودة هو "مجلة الهلال" العريقة.

مهما يكن من أمر، تجد أن رءوف عباس كان وطنياً متحمساً من طراز فريد، تركت تلك الأحداث فى نفسه الإحساس بالمرارة والألم واليأس تارة، وبالتفاؤل تارة أخرى.. وملأ بطون الكتب والمجلات (الهلال بصفة خاصة) ببحوثه ومقالاته السياسية وغير السياسية والتى تناولت - خصيصاً - التطورات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وعرفه تلاميذه، بعد أن تولى منصبه الأكاديمى فى جامعة القاهرة، عن كثب، فالتفوا حوله، وإستلهموه الرشد، وكان لسانهم الناطق وإمامهم المتبع لأنه سريع البديهة، قوى الحجة، بارع الأدب، دمث الأخلاق، وبان لتلاميذه وزملائه صدق قوله وأمانته العلمية وصواب رأيه.. !!

ونحن إذن نرى ذلك فى ثنايا كتاباته وأبحاثه التى لا حصر لها، وإنما نكتفى هنا "بنماذج" فقط لمآثره وفضله على التاريخ، ففى كتابه (جماعة النهضة الوطنية) الذى صدر عن دار الفكر عام 1986، نستشف منه أن مصر شهدت فى الفترة.. ما بين 1923-1952، تجربة ليبرالية بما تحمله فى طياتها من إيجابيات وسلبيات، إستهدفت تحقيق (الديمقراطية).. السياسية، لكنها على النمط (الغربى)، كما أن شرائح البرجوازية العليا المصرية، لم تكن آنذاك على دراية تامة بالظروف الموضوعية لتلك المرحلة التاريخية، حيث جاءت رؤيتها من زاوية مصالحها الضيقة، وكان المجتمع المصرى حينذاك يعج بالتناقضات الإجتماعية الصارخة، التى إستوجبت بالضرورة فتح الطريق تجاه الديمقراطية الإجتماعية، طالما كانت الديمقراطية السياسية ترغب فى تحقيق الغاية المنشودة، لكن والحال هكذا، فإن البرجوازية العليا التى أشرنا إليها، دأبت على تنمية الثروات والإستحواذ على المزيد من الأراضى الزراعية، والتى كانت بمثابة أداة الإنتاج فى مجتمع زراعى، دون أن تجد حلولاً جذرية حاسمة لمشكلة الفقر التى باتت أكثر تفاقماً إبان الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى (العشرين) بحيث أصبحت نذيراً لثورة اجتماعية عارمة تكاد تعصف بمصالح البرجوازية ذاتها.

وفى إطار الفكرة ذاتها، حرص "د. رءوف" أن يجعل من فكر "جماعة النهضة الوطنية" نموذجاً فريداً للنقد الإجتماعى، النابع من إطار النظام الليبرالى، وأنه يختص تلك الجماعة بدراسة تاريخها وأفكارها لكونها إحدى الإرهاصات ونواة لسلسلة دراسات نقدية للمجتمع المصرى قبل نشوب ثورة 23 يوليو 1952، وذلك من ثنايا الوثائق والمطبوعات التى تضمنت أدبياتها، وكانت له رؤيته الخاصة إزاء تلك الأفكار فى إطار الحقيقة التاريخية المشار إليها، وقام بتوجيه الشكر والتقدير لمن تعاون معه فى هذا الصدد من أساتذه.

واللافت للنظر، أن راحلنا العزيز، كان يبنى صروح الآمال منذ شبابه المبكر، حيث حصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ من جامعة عين شمس عام 1961، ثم على الماجستير عام 1966، وعين معيداً بجامعة القاهرة فى كلية الآداب قسم التاريخ الحديث عام 1967، وتدرج فى سلك الوظائف الأكاديمية إلى أن أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث عام 1981، وبعدها رقى إلى رئيس قسم التاريخ الحديث بجامعة القاهرة أيضاً عام 1982، فوكيلاً لكلية الآداب بنفس الجامعة حتى بلغ السن القانونية للمعاش وبعدها عين أستاذاً متفرعاً فى فرع التاريخ الحديث. وهذا الكفاح والنضال المشرف فى رحلة أستاذنا، تبدو للعيان أنها عسيرة ظاهرياً، لكنه مع الإصرار والعزيمة القوية فإن اليأس لم يتمكن من قلبه مطلقاً، لأنه كان يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، ويطيل النظر فى عواقب الأمور قبل الإقدام عليها ليحمد مغبتها.. ويأمن الزلل منها طوال محطات حياته حتى رحيله.

وكانت تلك الرحلة ناجحة بكل المقاييس، حيث لم يتوقف د. رءوف لحظة عن الدراسة والبحث والتأليف، وترك لنا تراثاً تاريخياً نعتز به جميعاً... إضافة إلى المؤتمرات والندوات المحلية والعالمية، وخير شاهد مجلة "الهلال".

ومن الأهمية بمكان أنه نشر دراسة وثائقية فى "المجلة التاريخية المصرية"، المجلد 27 عام 1981، تحت عنوان "التطلعات الأمريكية فى المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الثانية"، حدد فيها أهداف السياسة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، من حيث تدعيم المصالح المستقبلية لها، على أساس حسن الجوار، والإعتراف بحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها، وضمان تكافؤ الفرص بين الدول على قدم المساواة، وهذا - فى تقديرى- يجعلنا أمام علامة إستفهام كبيرة تجاه السياسة الأمريكية التى تعد بمثابة لغز محير من حيث مرجعيتها فى المنطقة، ولعل المقولة التى تقول "الحقيقة أغرب من الخيال !!" تنطبق على تلك السياسة التى تتمحور فى الكيل بمكيالين، وعلى سبيل المثال، ساندت ثورة يوليو 1952، ثم ما لبثت أن قلبت لمصر ظهر المجن، فمثلاً فى عدوان 1956، ثم كارثة 1967، بمساندتها إسرائيل رأس الحربة فى المنطقة العربية وما ترتب عليها من تداعيات خطرة، حيث أصيبت المنطقة العربية برمتها بتلك الكارثة المروعة، ناهيك عن القضية الفلسطينية التى أصيبت فى مقتل، وهى الآن مسئولة تماماً عن الصراعات الدموية فى العراق و أفغانستان وفلسطين ولبنان... إلخ. والتحرش بإيران بين الحين والآخر من جراء هذه السياسة الخرقاء والتى تمخضت عن أحداث 11 سبتمبر 2001 فيها، وهى المسئولة عنها، وأخيراً أردد مع الشاعر: عن "د. رءوف":

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد ما دمنا فنم أنت هانياً
بناؤك محفوظ وطيفك ماثـــل وصوتك مســموع إن كنت نائياً.